

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

توطئة وتمهيد

حول الديباج المذهب وابن فرحون

لئن اهتم المؤرخون - للفقهاء - عموما بتاريخ أئمة الفقه الأربعة : أبي حنيفة ومالك والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وسنّفوا في تاريخهم وتاريخ أتباعهم كتباً شتى . . . لقد اهتم المؤرخون من فقهاء المالكية في شمال إفريقيا ، وفي القهروان والأندلس - بنوع خاص - بالتأليف عن الإمام مالك بن أنس ، وأتباعه ، نظراً لاهتبارات عديدة منها مايلي :

• أن المالكيين من القضاة والفقهاء بالحجاز والعراق والشام والقهروان وغيرها كان سلوكهم بين الجماهير يكاد يكون - عندهم - سلوكاً مثالياً سواء في ذلك ما يتعلق بملاقتهم بالله ، أو بالأمرأء ، أو بالناس .

• أما علاقتهم بالله فقد تمثلت فيما كانوا يقدمون به - حينئذ - من تقوى الله ، ومن ترفع على مرض الدنيا ، وزخرف الحياة ، ومن حرص على التقريب في كثير من المؤلفات الفقهية بشذرات عن التقوى وانطلاق الفاضل ، والسلوك الحيد .

• وأما علاقتهم بالأمرأء فلم يمهّد عنهم أنهم كانوا يتهاافتون على استرضائهم ، أو يتمسحون بأعقابهم ، أو يترخصون معهم في الرأي والفتيا ، أو يطوّعون الدين لرغبتهم ، أو يقبلون على دنياهم ، أو يقبلون هداياهم

ورشاوهم ، أو يخشون في الله لومة لائم .

• وأما علاقتهم بالناس فلم يمهّد فيهم تجبراً أو استملاء . بل عرفوا متواضعين ودعاء ، يهتمون بمشاكل الجماهير ، ويبحثون عن الحلول العملية لقضاياهم الفقهية ، ويعارضون - لله وللعق ولصالح الجماهير : الحكام الجائرين ، والولاة المتعبرين .

• • •

ولقد كان لمؤلاة الفقهاء والقضاء في إمامهم البطل « مالك بن أنس »

مثل أي مثل . ١

لقد وعى لهم التاريخ كيف تسارع أسلافهم إلى الشخصوس إليه ، للأخذ عنه ، ولالتقى عليه حين تراءى إلى أسماعهم أن إماماً يمنياً من ذى أصبح ترعرع بالمدينة ، ونشأ بها - بعد أن كان - أجداده قد نزحوا إليها .. فنهل من ينابيعها الثرة ، ورشف من معين ثقافتها الفضة ، وتلمذ لأعلام التابعين من علمائها ، وأصبح - في الحديث والفنّي والتأليف والتدريس : ابن مجدتها ، وفارس حلبتها . ١

• • •

ولقد حكى لهم أوائك الأسلاف : كيف أن هذا الإمام - ماليت أن اشتهر آتئذ بعلمه وتقواه ، وإبائته وذكائه ، وبعمله على إحياء السفة وإمانة البدعة .

كما رَوَوْا لهم كيف اتسعت حلقة العلمة ؟ وكيف وفد الناس إليها من كل عذبٍ وصوب . وكيف كان يجلس إليه فيمن يجلس : الخلفاء ، والأمراء ؟

أجل ! لقد جاس لاهدى إليه . يقرأ الموطأ عليه ، وخذا حذره : ابنه الرشيد ثم حفيدهاء : الأمين والمأمون !

• • •